

الجهود العروضية للجوهري من خلال كتابيه: "عروض الورقة" و "كتاب القوافي"

أ. عبد الحميد قاوي (أستاذ مساعد - أ -)

مخبر اللغة العربية وآدابها

جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

قسم اللغة والأدب العربي

إشراف: أ.د. محمد خليفة - جامعة عمار ثليجي بالأغواط

ملخص باللغة العربية :

يهدف هذا المقال العلمي إلى إظهار جهود الإمام اللغوي أبي نصر حماد بن إسماعيل الجوهري من خلال كتابيه " عروض الورقة " و " كتاب القوافي " ، وقد تركت أكثر ما تركت على بناء نظامه العروضي الذي خالف فيه الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض ، ومن سار على نهجه في الأبواب الشعرية والتغيرات الوزنية ، والووائر العروضية .

الكلمات المفتاحية: إيقاع، عروض، وزن، الجوهري، الفراهيدي

ملخص باللغة الانجليزية :

ABSTRACT:

The aim of this academic article is to highlight the significant efforts deployed by the Imam and language scholar 'Abi Nasr Ismail Ben Hamad El-Djawhari' in the field of metrics through his two books, namely : 'Aroudh El Ouara' and 'Kitab El Quaouafi'. His major contribution was basically oriented to the metrical system, covering the patterns of poetry, the metrical variations and the metrical circles through which he opposed the method adopted by El Khalil Ibn Ahmed El- Farahidi . the founder of the laws of metrics

KEY-WORDS : meter, Metrics, Abi Nasr Ismail Ben Hamad El-Djawhari, El Khalil Ibn Ahmed El Farahidi, metrical circles

عرف الشعر العربي منذ نشأته تطورا كبيرا ، من شكله ومضمونه . وقد كان العصر الأموي عصر بواذر التجديد في شكل القصيدة العربية ، وذلك من خلال تغيير في كمّ الأبيات ، وفي الميل إلى تخفيف الأوزان القديمة ، ووضع الأوزان القصيرة . وقد بدا هذا جليا مع الوليد بن يزيد. وما إن توطّد الحكم لبني العباس في بغداد واستقرّ حتى عرفت الحركة الأدبية ازدهارا وتطورا أكثر من ذي قبل ، وبدأ الشعراء - بفعل تأثرهم بالحضارة الجديدة وانتشار المعرفة والاحتكاك بالأمم الأخرى وثقافتهم وأدبهم - يجددون في قوالهم الشعرية ، و يخوضون في موضوعات وأغراض لم تطرق من قبل مثلما نجد عند أبي العتاهية وغيره .

وقد واکب هذا التطور الأدبي تطورا نقديا وعلميا وفلسفيا ، فوجدنا العلماء على مختلف مشاربهم يؤسسون

علوم لغوية ، و دينية ، وفلسفية تعالج قضايا اللغة والأدب ، وقضايا الفقه وأصوله و الحديث النبوي ، وقضايا المنطق والكلام وغيرها . ومن بين هذه العلوم نذكر علم العروض الذي أسسه العالم اللغوي صاحب المعجم الشهير " العين " الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ / 170 هـ) ، وهو علم يعنى بدراسة موسيقى الشعر ، وضبط أوزانه ، وبيان صحته أو فساده إيقاعيا .

وضع الخليل علم العروض بعد أن خبر الشعر العربي قديمه وحديثه (أي شعر عصره) ، وبرع في علوم اللغة صرفها ونحوها وبلاغتها ، وتبحر في علوم زمانه من نغم وموسيقى وحساب . إلخ . ويتر بعد هذا فهم علم العروض ببنائه بطريقة صوتية و علمية رياضية يسهل معها الوصول إلى إيقاع الشعر وإدراك جاليات موسيقاه . وبجلب ألفاظ هي من صميم البيئة العربية ستم بها الكثير من مصطلحات هذا العلم . وبقي علم العروض الخليلي إلى يوم الناس هذا دون تغيير جوهري أو جذري مس بناءه مما يدل على عبقرية الخليل بن أحمد وذكاؤه ومدى إحكام صنعته وسعة علمه . ومع كل هذا فإن محاولات العلماء بعد الخليل بن أحمد لم تتوان ، وجهودهم لم تفت ، بدءا من الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) الذي سار على خطاه ، و وضع البحر المتدارك ، ومرورا بابن جني اللغوي ، فالجوهري صاحب المعجم القفوي الشهير " الصحاح " ، فابن حازم القرطاجني صاحب المنهاج وغيرهم كثير .

ولما كان هذا المقال مخصصا لجهود الجوهري العروضية من خلال كتابيه " عروض الورقة " ، و " كتاب القوافي " ، فإنه من الحري بنا أن نقف أولا على التعريف به و بكتابيه ، ثم نبين جموده العروضية .

الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، أحد أعلام اللغة والأدب وأتمتها ، ولد في أوائل القرن الرابع الهجري في بلاد " فاراب " من بلاد الترك وراء نهر جيحون سنة 332 هـ . كان يضرب به المثل في اللغة ، وفي حسن الكتابة . ترجم له معاصره الإمام أبو منصور الثعالبي في اليتيمة بقوله : « من أعاجيب الدنيا ، وذلك أنه من الفاراب ، إحدى بلاد الترك ، وهو إمام في علم لغة العرب ، وخطه يضرب به المثل في الحسن ، ويذكر في الخطوط المنسوبة لخط ابن مقلة ، ومهلل ، واليزيدي ، ثم هو من فرسان الكلام ، ومن آتاه الله قوة وبصيرة ، وحسن سيرة وسيرة ، وكان يؤثر السفر على الوطن ، والغربة على السكن والمسكن ، ويخترق البدو والحضر ، ويدخل ديار ربيعة ومضر ، في طلب الأدب ، وإتقان لغة العرب . وحين قضى وطره من قطع الآفاق ، والاعتباس من علماء الشام والعراق ، عاود خراسان ، وتطرق الدامغان ، فأنزله أبو علي الحسن بن علي - وهو من أعيان الكتاب ، وأفراد الفضلاء - عنده ، وبذل في إكرام مثواه ، وإحسان قراه جمده ، وأخذ من أدبه وخطه حظه ، ثم سرحه بإحسان إلى نيسابور فلم يزل مقبلا بها على التدريس والتأليف وتعليم الخط الأنيق ، وكتابة المصاحف ، والدفاتر اللطائف ، حتى مضى لسبيله ، عن آثار جميلة ، وأخبار حميدة » (01) .

أخذ العلم عن خاله أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت 350 هـ) ، صاحب كتاب " ديوان الأدب " . رحل الجوهري إلى العراق - وهو يومئذ يزخر بأفذاذ العلماء في كل فن - فتلقى علم العرب من شيخين عظميين من شيوخ العربية هما : أبو علي الفارسي (288 هـ - 386 هـ) ، وأبو سعيد السيرافي (284 هـ - 368 هـ) ، وأحب أن يستزيد من العلم والمعرفة فسافر إلى الحجاز ، وشافه العرب العاربة في ديارهم ، وطوف ببلاد ربيعة ومضر ، ثم عاد إلى خراسان ، وتطرق الدامغان فأنزله أبو علي الحسين بن علي .. ثم سرحه إلى نيسابور .

تتلذذ على يديه نفر من العلماء ، منهم ، إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري ، وأبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق ، وأبو سعيد بن دوست .

تكسب الجوهري بعد استقراره بنيسابور بإقراء القرآن ، والتدريس ، وتعليم الخط ، ونسخ الكتب ، وكان

يؤلف في أثناء ذلك .

اعتزت الجوهري - رحمه الله - وسوسة فضى إلى الجامع القديم بنيسابور وصعد إلى سطحه محاولا الطيران . ويروى أنه قال بعد أن صعد السطح : أيها الناس ، إنّي عملت في الدنيا شيئا لم أسبق إليه ، فأعمل للآخرة أمرا لم أسبق إليه ، وضمّ إلى جنبيه مصراعي باب وتأبطهما بجبل ، وزعم أنّه يطير ، فألقى بنفسه من أعلى مكان في الجامع فمات . قال القفطي في إنباه الرواة : « وقيل إنه اختلط في آخر عمره ، ومات متردّا من سطح داره بنيسابور سنة 398هـ ، ورأيت فيما رأيت أنه مات في حدود سنة أربعائة » (2) .

أما وفاته فاختلف فيها المؤرخون والمترجون له ، وتراوح ما بين 393هـ و 400هـ ، قال صلاح الدين الصفدي : « وتوفي صاحب الصحاح سنة 393هـ . » (3) ، وقال ياقوت الحموي : « كنت بحلب في سنة إحدى عشرة وستائة في منزل القاضي الأكرم والصاحب الأعظم أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني . فتجارنا أمر الجوهري وما وقّق له من حسن التصنيف ، ثم قلت له : ومن العجب أني بحثت عن مولده ووفاته بحثا شافيا ، وسألت عنها الواردين من نيسابور ، فلم أجد مخبرا عن ذلك . فقال لي : لقد بحثت قبلك عن ذلك ، فلم أر مخبرا عنه . فلما كان من غد ذلك اليوم ، جئت ، فقال لي : ألا أخبرك بطريفة ؟ إنني رأيت في بارحتنا في النوم قائلا يقول لي : مات إسماعيل بن حماد الجوهري سنة ست وثمانين وثلثمائة ، ولعمري وإن كان المنام مما لا يقطع به ، ولا يعمل عليه ، فهذا بلا شك زمانه ، وفيه كان أوانه . لأن شيخه أبا علي وأبا سعيد ماتا قبل هذه المدة بسنين يسيرة . ثم وجدت نسخة بديوان الأدب بخطّ الجوهريّ بتبريز وقد كتبها سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة . ثم وقفت على نسخة بالصحاح بخطّ الجوهري بدمشق عند الملك المعظم بن العادل بن أيوب صاحب دمشق وقد كتبها في سنة ست وتسعين وثلثمائة . » (4) ، وقال شهاب الدين بن فضل الله : « وقيل : إنّه اختلط في آخر عمره و مات متردّا سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة . وقيل : في حدود الأربعائة » (5) . ، وقال الإمام الثعالبي في فقه اللغة أنه : « ولد الجوهري سنة 332 هـ ، وتوفي سنة 393 هـ » (6) . و ذكر الدكتور سليمان أحمد أبو ستة أنه توفي سنة 440هـ (7) ، وهو الراجح عندنا من الأقوال . عرف الجوهري بحذّة ذكائه ، وعجيب فطنته ، و غزارة علمه ، وواسع فهمه ، وقوة بصيرته ، وحسن سيرته وسيرته ، وجودة خطه . وصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء " من أذكاء العالم " . وقال عنه ياقوت بن حجر : « وقد برع في علم اللغة والأدب حتى صار يضرب به المثل في ضبط اللغة » .

ألّف الجوهري معجمه الشهير الصحاح في نيسابور ، وصنّفه لأبي منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكي ، وكان البيشكي أدبيا واعظا ، أصوليا من أصحاب أبي عبد الله الحاكم بن عبد الله . وكان قد خالف فيه نهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في ترتيب المفردات اللغوية ، فالخليل رتب معجمه ترتيبا صوتيا ، أمّا الجوهريّ فرتب معجمه ترتيبا قفويا ، قاصدا به التيسير لأرباب الشعر والأدب خاصة في الوصول إلى القافية المتوخاة أثناء بناء القصيدة .

كما ألّف كتباً أخرى نذكر منها : كتاب " عروض الورقة " وكتاب " القوافي " وكتاب " مقدمة في النحو " قال ياقوت الحموي : « وله من التصانيف : كتاب في العروض جيّد بالغ سماء " عروض الورقة " . كتاب المقدمة في النحو . كتاب الصحاح في اللغة . » (8) .

للجوهري شعر العلماء ، لا شعر مفلقّي الشعراء ، فمن ذلك قوله [من مخلّع البسيط] (9) :

يا ضائع العمر بالأمانى *** أما ترى رونق الزمان
فقم بنا يا أخا الملاهي *** نخرج إلى نهر بشتنقان

لعلنا نجتني سرورا *** حيث جنى الجنتين دان
 كأنا والقصور فيها *** بحاقي كثر الجنان
 والطير فوق الغضون تحكي *** بحسن أصواتها الأغاني
 وراسل الورق عندليب *** كالزير و البم والمثاني
 وبركة حولها أناخت *** عشر من الدلب واثنتان
 فرصتك اليوم فاغتنمها *** فكل وقت سواه فان

وقوله أيضا [من السريع] :

لو كان لي بدّ من الناس *** قطعت جبل الناس بالياس
 العزّ في العزلة لكثّه *** لا بد للناس من الناس

لقد زكى ياقوت الحموي كتاب الجوهري في العروض ، فقال : « وله من التصانيف كتاب في العروض جيّد بالغ سماء عروض الورقة » (10) .

ويقول ابن رشيقي القيرواني : « ثم ألف الناس بعده - أي الخليل - واختلفوا في مقادير استنباطاتهم حتى وصل الأمر إلى أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، فبين الأشياء ، وأوضحها في اختصار ، وإلى مذهبه يذهب حدّاق أهل الوقت ، وأرباب الصناعة » (11) .

ويعتقد الدكتور أميل بديع يعقوب « أنّ هذا العلم إنما وضعه الخليل ، وهذبه الجوهري » (12) .

افتتح أبو نصر الجوهري كتابه بتعريف العروض ، وذكر فوائدها ، وعللها ، يقول : « العروض ميزان الشعر ، وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة ، وفوائدها ثلاث : إحداها : أنّه يستعين بها من خانة النوق . وثانيها : أنّه يعرف بها مفارقة القرآن للشعر ، ومباينته له . وثالثها : أنّه يعلم بها ما يجوز في الشعر مما لا يجوز فيه . وعللها ثلاث : إحداها عدم السماع عن العرب .. والثانية : الشذوذ عن القياس .. والثالثة : ترك الوزن .. » (13) .

وقد علّق الدكتور محمد خليفة على التحديد الذي ذكره الجوهري لعلل علم العروض وحصره في ثلاث يقول : « نستنتج من تحديده لعلل العروض في هذا النص المرتكزات الأساسية التي اعتمدها منها يسير عليه في درسه العروضي ، فهو يميز للمحدث ، قياسا ، ما في معنى ما ثبت عن العرب من الأبنية الإيقاعية المقبولة ، ولا يميز له ما دون ذلك ، لأنه إمّا محمول على الشذوذ ، أو مخالف لبنية الإيقاع . » (14) .

وشرع بعد ذلك في بيان مقدماتها وذلك من خلال معرفة الأسباب والأوتاد ، والفواصل ، والأجزاء والتقطيع ، والزحاف ، والأبواب . وخالف في عدّة التفعيلات مذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي و حصرها في سبع ، - وهو رأي مخالف كذلك لكلّ العروضيين - يقول : « أمّا الأجزاء التي يقطع عليها الشعر فسبعة : اثنان منها خماسيتان ، وهما (فعولن) و (فاعلن) ، وخمسة سباعيات ، وهنّ (مفاعيلن) ، (فاعلاتن) ، (مستفععلن) ، (مفاعلاتن) ، (متفاعلن) ، و أمّا (مفعولات) ، فليس بجزء صحيح على ما يقوله الخليل ، وإنما هو منقول من (مستفع لن) مفروق الوجد ، لأنه لو كان جزءا صحيحا لتركّب من مفردة بحر ، كما تركّب من سائر الأجزاء » . (15) .

إن هذا التغير الذي اعتمده الجوهري في بناء نظريته العروضية في الأجزاء وجعله كفاعلية أساسية في نظامه في التغييرات هو تغيير لم يعتمد الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ووجهه في هذا كما يرى الدكتور محمد خليفة : « تأصيلية

تركيبية ، فجميع الأجزاء التي عدّها صحيحة يتركب منها بحر قائم بذاته ، إذ أن هذه الأجزاء تمثل وحدات إيقاعية ، وتساوي عدّها البحور الصافية ، ولو كان (مفعولات) جزءا صحيحا لتركب منه بحر قائم بذاته ، وهذا غير متحقق ، وعليه فهو ليس بجزء صحيح . « (16) .

ثم يعقب قائلا : « ولا يمكننا هنا ادعاء أنّ الجوهريّ صاحب كشف عظيم في هذه المسألة لأن بنية البحور تمّ تحديدها أصلا من قبل الخليل .. ولكن الجوهريّ بتغيير النظرة إلى هذا الجزء يكون قد لمح إلى الإشكاليات التي يطرحها هذا الجزء في دائرة المشتبه ، عند الخليل . « (17) . ويخلص بعد تناوله لمنهج الجوهري في الأجزاء ضمن بحثه المتعلق بالنظام العروضي عند الجوهري من خلال كتابه (عروض الورد) إلى « أنّ أهم مظهر إجرائي مخالف لمنهج الخليل نستخلصه من منهج الجوهري في تفرّيع الأجزاء ، إضافته إلى موقعيّة السبب والوتد ، موقعيّة الحرف منطلقا في التفرّيع . ويختص هذا الإجراء بموقعيات الورد المفروق دون غيرها . ولا يخفى ما في هذا الطرح الثنائي للموقعيّة من مساس بمصدقية القيمة المرجعية الإجرائية إذ يؤدي هذا إلى ازدواجية في مقاييس التفرّيع من إيقاع إلى إيقاع مما ينقل المقياس من الثبات الناجم عن الأحادية إلى الاحتمالية التي تؤدي إليها الثنائية . « (18) .

وتحدّث بعد ذلك عن البحور ، والتي سمّاها أبوابا وقد حصرها في اثني عشر بحرا مخالفا بذلك الخليل و الأخفش في عدّها ، فقال : « وأمّا الأبواب فاثنا عشر ، سبعة منها مفردات ، وخمسة مركبات ويجمعها خمس دوائر مدخلات .. وكان الخليل يعدّ العروض خمسة عشر بابا ، ولا يعدّ المتدارك منها . ولعلّه فعل ذلك للشرح والتقريب . « (19) .

ويستخلص الجوهري نتيجة جعلها قاعدة - لكن لم يلتزم فيها كلية كما سنوضح في هذا المقال - ، وهي : « و كلّ بيت ركب من (مستغفلن) ، فمن الرجز هو طال أو قصر . وكلّ بيت ركب من (مستغفلن فاعلن) ، فهو من البسيط طال ، أو قصر . وعلى هذا سائر المفردات والمركبات » (20) . ويتبع هذه النتيجة بذكر مبادئ تقطيع الشعر منطلقا من المبدأ العام : « وأمّا التقطيع فيراعى فيه اللفظ دون الخطّ ، فيوضع المتحرك بإزاء المتحرك ، والسكان بإزاء الساكن . « (21) .

ويوجز الجوهري الكلام بعد ذلك عن الزحاف ويقرّ بأنه لا يكاد يسلم منه شعر ، وجعله على ثلاثة أضرب : مستحسن ، ومستحب ، ومردود .

ولم يميّز في هذا المبحث بين الزحاف ، والعلّة ، وأطلق عليهما معا اسم الزحاف ، يقول الدكتور مصطفى حرّكات : « إنّ الجوهري لم يميّز بين الزحاف والعلّة ، ويسمّي كل التغيرات اللازمة زحافا ، وهذا التبسيط سيء جدا لأنّ النظرية في حاجة إلى معرفة ما هو اختياري من التغيرات ، وما هو إجباري ، ولكل صنف من صنف التحويل وظيفة أبرزها العروض الخليلي ، فالعلّة تحدّد نموذج القصيدة ، والزحاف داخلي مهمته تسهيل النظم . « (22) . وعدم تمييز الجوهريّ بين الزحاف ، والعلّة كما يقول محمد بن عبد العزيز الدبّاغ : « جعل الكلام فوضى ، وأبعد التنظير المنطقي الذي يقرب الفهم ، ويحدّد المكان ، والصورة ، ولهذا نرى أنّ الجانب التعليمي عند الخليل أسلم ، وأقوى ، ويشعر بذلك من يرى الصبغة العلمية التي تقدم بها الزحافات ، والعلل عند الخليل ، والصبغة العشوائية التي تقدم بها نفس التغيرات عند الجوهري . « (23) . وقد عدّ الأستاذ محمد العلمي عدم التفريق بين الزحاف ، والعلّة عند الجوهري ثغرة منهجية في عمله . (24)

وقد خالف الجوهريّ الخليل في بعض الزحافات كما يسمها هو (وهي عند الخليل علل) ، فقد أباح القطع (علّة مزدوجة ، وهو حذف ساكن الورد المجموع من آخر التفعيلة ، وإسكان ما قبله) في ضرب مرتّب الخفيف ، وقال : «

والخليل يقول هو مقصور لأنه جعل أصله (عُولَاثُ مُس) في الدائرة ، و وتده مفروق في حشوه ، والحذف عنده من السبب « . (25) . كما أجاز كَفَ (فاعلاتن) في الخفيف مع خبن (مستفعلن) بعدها لعدم الفاصلة الكبرى ، وهذا عند الخليل ممتنع ، يقول : « ويجوز كَفَ (فاعلاتن) مع خبن (مستفعلن) لعدم الفاصلة الكبرى بين الجزأين ، وبينته : ثم بالدبران دارت رحاهم *** ورحى الحرب بالكفا تدور » (26) .

وأجاز الإسباغ في ضرب مرتع الخفيف (الإسباغ علة بالزيادة ، أي زيادة حرف ساكن على التفعيلة المنتهية ، بسبب خفيف) (عروض الورقة 58) ، وطَيَّ (مستفعلن في الخفيف للمعاقبة . (الطي : زحاف يمثل في حذف الرابع الساكن) (27) . والكَفَ في (مفاعيلن) في المضارع للمعاقبة ما بعده (28) . وأجاز الخبن في المضارع في (فاعلاتن) (29) .

والملاحظ أنّ الجوهري ذكر علة لم يذكرها الخليل ، وهي علة المعاقبة حيث ذكرها في كل بحر باستثناء الكامل ، يقول : « وإذا صار مضمرًا عاقبت سينه فاؤه ، لثلاث يجمع على الجزء ثلاث علل : الإضمار ، والخبن ، والطي ، لأنه إجحاف ، وليست العلة فيه حصول الفاصلة الكبرى لأن ذلك يجوز في الجزء الواحد ، وإنما لا يجوز بين الجزأين » (30) .
التغييرات (الزحافات والعلل)

قصدا بالتغييرات الزحافات والعلل التي تلحق الأوزان العروضية ، وقد فُرق العروضيون بينها ، إلا أن الجوهري خالف هذا التفريق و جمعها في مصطلح واحد ، يقول الجوهري : « وأما الزحاف فهو كل تغيير يلحق الجزء من الأجزاء السبعة من زيادة أو نقصان ، أو تسكين أو تقديم حرف أو تأخير ، ولا يكاد يسلم منه شعر ، وهو على اضرب ثلاثة : مستحسن ومستقبح ومردود » (31) .

تعدّ الزحافات والعلل في علم الخليل تغييرات إجرائية تلحق الأسباب والأوتاد بالزيادة تارة وبالنقص تارة أخرى ، وكما أشرنا سابقا أنّ فكرة تفريع الأوزان عند الجوهري فكرة ميّزت جمده عن غيره ، وأوضحت مفهومه في بناء الأوزان العروضية ، وهي فكرة انسحبت على الأوتاد في تفريق الود المجموع بتغيير ترتيب المتحركات والسواكن ، وهو في هذا العمل لم يفرق بين مفهوم البحر ، ومفهوم الوزن ، ومذهبه هذا في تفريق الود المجموع وما ينتج عنه من تفريع كما يقول الدكتور محمد خليفة : « لم يرق إلى العمق الذي يسمح ببناء قاعدة ضابطة لعناصر الإيقاع ، وإنما ظل في إطار النظرة السطحية التبسيطية التي لا تكاد تخرج عن ظواهر الأوزان » (32) . ويرتبط بمفهوم التغييرات التي تلحق الأوتاد مفهوم آخر لا يقل أهمية في الفكر العروضي عند الجوهري وهو مفهوم الجزء (بفتح الجيم وتسكين الزاي) ويقصد به حذف الجزء الأخير فقط من الشطر في نظرية الخليل ، أما عند الجوهري فالأمر مختلف إذ يقع الجزء على الجزء الأول من الشطر كما يقع الجزء الأخير .

يقول الدكتور محمد خليفة : « وخلاصة القول في ما جاء به الجوهري ، أنه حاول تبسيط الجانب القواعدي للظاهرة الإيقاعية الشعرية ، وذلك بتوحيده للعة والزحاف في مصطلح واحد ، والغائه لمفهوم الود المفروق بوصفه عنصرا مستقلا بذاته ، وعدّه وتدا مجموعا خضع للتفريق ، والغائه لمفهوم الدائرة ، وأسس التبديل الدوراني ، واستبداله بمفهوم سطحي للدائرة من خلال التداخل ، واعتماده في التفريع الجزء من بداية المقدار الوزني ، وتفرّعه مجورا متباعدة في وحداتها الإيقاعية من بحر واحد مفارق لها في الوحدة الإيقاعية » (33) .

وقد عارض الجوهري الخليل في أعاريض الشعر ، وأضره ، وانتقده في الوقوف على ذكر جميعها ، لأنه ذكر بالنسبة إليه لا طائل من ورائه حيث يقول : « وذكر الخليل أنّ جميع أعاريض الشعر ، وضروبه أربع وثلاثون عروضاً

، وثلاثة وستون ضرباً ، ولا يحتاج في هذا الباب إلى معرفة تفصيل الأعارض ، والضروب ، وترتيب الأبيات ، لأنّ الزحاف لا يختصّ بها دون الحشو ، والصدر ، فهي مشغلة عظيمة قليلة الفائدة ، والصواب أن تعرف الأبيات التي لا زحاف فيها ، ثم يجوز فيها من الزحاف وألقابه على ما ترتبه ، ونذكر فيه ما جاء عن القدماء والمحدثين جميعاً ، ليكون أجمع وأنفع . « (34) .

وفي باب البحور بدأ الجوهري بالضابط العام لكل بحر على شاكلة قوله عن الطويل : « مثنى قديم ، مسدّس محدث » (35) ، وعن المديد « مثنى محدث ، مسدّس قديم » (36) . وهكذا مع سائر الأبواب (البحور) . وقد جعل البحور اثني عشر باباً ، يقول : « وأما الأبواب فاثنا عشر ، سبعة منها مفردات ، وخمسة مركّبات ، فأولها المتقارب ، ثم الهزج ، والطويل بينهما مركّب منها ، ثم بعد الهزج الزمل ، والمضارع بينهما ، ثم بعد الزمل الرجز ، فالخفيف بينهما ، ثم بعد الرجز المتدارك ، والبسيط بينهما ، ثم بعد المتدارك المديد مركّب منه ، ومن الزمل ، ثم الوافر ، والكامل ، ولم يتركّب بينهما بحر لما فيها من الفاصلة » (37) . وقد أدخل في تقسيمه هذا السريع من البسيط ، والمنسرح والمقتضب من الرجز ، والمجثث من الخفيف » (38) . كما أدخل المنسرح المنهوك المكشوف في مثنى الرجز الذي فرق وتد ضربه ، و وقف كان (مستفعّل) فأصبح (مفعولان) . و أدخل المنسرح المنهوك المكشوف في مثنى الرجز المقطوع كان ضربه (مستفعّل) فأصبح (مستفعّل) فنقل إلى (مفعول) (39) . و أدخل المنسرح الصّحيح العروض ، المطويّ الضرب في مسدّس الرجز بتفريق وتد (مستفعّل) الثانية صدرا ، وعجزا كانت (مستفعّل) فأصبحت (مفعولاً) (40) . وأدخل المقتضب في مربع الرجز بتفريق التود في جزئه الأول صدرا ، وعجزا كان (مستفعّل) فأصبح (مفعولاً) (41) . وأدخل المجثث في الخفيف حيث عدّه مرتباً نقص منه (فاعلاتن) الأولى والثالثة . (42) .

يقول محمد بوزواوي : « وقضية إدخال بحر في بحر بقيت في حدود النظرية ، ولم يجعل الجوهريّ تطبيقاً ، فلم يصرّح في كتابه أنه يجوز أن يجتمع في قصيدة واحدة بيت من السريع مع آخر من البسيط ، أو بيت من المجثث مع آخر من الخفيف . كما أنه في أثناء حديثه عن الإدخال لم ينظر إلى البحر من حيث الإيقاع ، وإنما ركّز على تركيب التفاعيل » (43) . ويقول مصطفى حركات على هذا أيضاً : « وفي هذا الرأي نفى لخطية الوزن ، وللزمان الذي يؤذي خلاله السواكن ، والمتحركات ، ووحدات الوزن مثل الوحدات الصوتية التي تكون اللغة ، كلما تميّز بين مسح ، وسمح على مستوى الحروف ، وبين " عيسى يضرب موسى " ، و " إنّ موسى يضرب عيسى " على مستوى الكلمات يلزمنا أن نفرّق بين تفعيلتين مثل (مستفعّل) و (مفعولات) ، وبين وزنين مثل (فاعلاتن مستفعّل) و (مستفعّل) فاعلاتن) ، واعتبار المنسرح من الرجز بالتقريب بين (مفعولات) و (مستفعّل) فيه تكلف كبير ، كما أن هذا التكلف باد في عدّ المجثث (مستفعّل فاعلاتن) من مجزوء الخفيف (فاعلاتن مستفعّل) » (44) .

وكان الجوهري في باب البحور يميز اجتماع أكثر من عروض وضرب في قصيدة واحدة ، يقول : « ويحتمل في قصيدة واحدة عروض حدّاء ، وعروض صحيحة ، قال امرؤ القيس :
لله أنجح ما طلبت به *** والبرّ خير حقيقة الرّحل
ثم قال فيها :

ياربّ غانية صرمت جبالها *** ومشيت متتدا على رسلي

فالبيت الأول عروضه (فعّلن) والثاني (متفاعّلن) . « (45) .

إن البحور الشعرية التي سَمّاها الجوهري أبوابا اثنا عشر بحرا ، مقسّمة إلى قسمين على أساس الأفراد والتركيب ، فالأبواب المفردات سبعة هي : المتقارب والهزج ، والرمل ، والرجز ، والمتدرك ، والوافر ، والكامل . أما الأبواب المركبات فعدها خمسة وهي : الطويل والمضارع والخفيف والبسيط والمديد . وسَمّاها بالمركبات لأنها تتكون من اجتماع وحدتين من بحرين مفردين على النحو التالي :

الطويل (فعولن مفاعيلن) = المتقارب (فعولن) + الهزج (مفاعيلن)
 المضارع (مفاعيلن فاعلاتن) = الهزج (مفاعيلن) + الرمل (فاعلاتن)
 الخفيف (فاعلاتن مستفعّلن) = الرمل (فاعلاتن) + الرجز (مستفعّلن)
 البسيط (مستفعّلن فاعلن) = الرجز (مستفعّلن) + المتدرك (فاعلن)
 المديد (فاعلاتن فاعلن) = الرمل (فاعلاتن) + المتدرك (فاعلن)
 ويمكننا أن نقدم رسما يبيننا للتفريع عند الجوهري على النحو التالي :

المتقارب + الهزج	الرمل + الرجز	الهزج + الرمل	الرجز + المتدرك	الرمل + المتدرك
الطويل	الخفيف	البسيط	المديد	

المضارع

وفي هذا يقول الدكتور محمد خليفة معلقا : « والذي نستشفه من هذا التصنيف ، والتفريع أنّ الجوهري لم يتجاوز الجانب الصوري للتفريع إلى تغيير البناءات الإيقاعية التي وضعها الخليل ، بدليل أنه بقيت لديه إمكانات للتفريع من اجتماع المفردات لم يوردها ... إنّ ما نلاحظه على البناء التفريعي الذي أقامه أنّه لا يخضع لقاعدة في التفريع تحكمه ، انتقالا من بحر مفرد إلى آخر... وإذا صحّ الأمر ، وما نظنه إلا كذلك ، فإننا نؤكد هنا التساؤل السابق عن سبب إهمال الجوهري لكثير من إمكانات التفريع ، و لا نجد له تفسيراً إلا في أخذ الجوهري بالأبنية الإيقاعية التي وضعها الخليل حصرا للتحقيق الشعري » (46) .

ويخالف الجوهري الخليل في فكرة التفريع والتأصيل على مستوى الدائرة العروضية ، فالخليل ابن أحمد الفراهيدي يجعل من الأسباب والأوتاد وتبديل مواقعهما في الدائرة منطلقا له في تحديد البحر الأصل من البحر الفرع ، كما يجعل من البحر المستخرج من الدائرة نظريا نموذجا أصلا . والبحر الذي لحقه جزء أو نهك أو شطر أو زحاف أو علة استعمالا فرعا ، أما الجوهريّ فالتفريع عنده يتم من خلال إيجاد المركّبات من البحور . يقول الدكتور محمد خليفة : « إنّ التفريع عند الخليل ينقسم إلى قسمين : تفريع تأصيلي تقوم عليه الدائرة على أساس التبديل الدوراني انطلاقا من موقعيات الأسباب والأوتاد . وتفريع توفيق يتم الانتقال فيه من النموذج في الدائرة إلى الاستعمال من خلال الجزء ، والشطّر ، والنهك ، والزحاف ، والعلة ... وأما التفريع عند الجوهريّ فإنّه ينقسم إلى قسمين أيضا : تفريع خارجي تجميعي ، يتم من

خلال إيجاد المركبات من البحور . وتفريع داخلي تغييري يتم به إيجاد بقية البحور التي لم تظهر لا في المفرد من الأوزان، ولا في المركب منها . وما يلاحظ على هذا المستوى الثاني أنه عد كلا من السريع والمنسرح والمقتضب والمجتث أوزانا من بحور لا بحورا قائمة بذاتها ، وهذا خلط كبير بين أنظمة إيقاعية مختلفة إذ لم يراع فيها إلا الجانب الشكلي للمكونات بغض النظر عن موقعياتها وترتيبها عموما ... فالجوهري لم يتعدّ الجانب الشكلي الظاهري للبنية في تصنيف الوزن ... وإثما الذي أرجحه أنّه كان يبسط علم العروض بالتنبيه إلى هذا الجانب من التقارب الشكلي « (47) .

نستخلص أن الجوهري :

- ردّ السريع إلى البسيط مخالفا ما جاء به الخليل في نظريته العروضية تارة ، كما عدّ السريع من الرجز تارة أخرى وهذا ما يظهر التناقض عنده. كما جعل بحر المنسرح وزنا من مسدس الرجز، و بحر المقتضب وزنا من مربع الرجز.
- قدّم ضربا من الأوزان لم يعتمدها الخليل وذلك لأخذه بالحدث من الشعر ، فقد أثبت وزن المتدارك في بحر الشعر، ونصّ على أنه مثنى قديم ، مسدس محدث .
- أورد مثنى تام للطويل غير مقبوض العروض ، و أجاز وروده مسدّسا .
- ذكر للمديد وزنا تاما ، ونصّ على أنّه محدث ، واستدرك على الخليل مربعا للمديد ، و نصّ على أنّه قديم .
- ذكر للبسيط وزنا محدثا تاما غير مزاحف ، و أورد له مربعا ، و نصّ على أنّه محدث ، وأجاز في عروض مخلع البسيط الحذف ، وأورد مخلع البسيط مطويا ونصّ على أنّه محدث .
- ذكر للوافر وزنا تاما غير مقطوف العروض والضرب ، ونصّ على أنّه محدث .
- أورد للهزج مسدّسا ، ونصّ على أنّه محدث ، وذكر له ضربا مقصورا (فعولان) .
- أثبت للرجز وزنا موحد يدعى المقطّع يقوم على تفعيلة واحدة ، ونصّ على أنّه محدث .
- ذكر للرمل وزنا تاما غير محذوف ، ونصّ على أنّه محدث .
- ذكر للمقارب وزنا مربعا صحيحا ، ونصّ على أنّه محدث .
- ذكر الجوهري - على غير ما نجده عند الخليل - أوزانا تامة ، وأثبت أوزانا مختصرة مسدّسات ومربعات وكان في عمله هذا ينصّ على الوزن المحدث مشيرا إلى عدم ورودها في علم الخليل ، ويرى الدكتور محمد خليفة أنّ قصده من إيراد هذه الأوزان هو إمكانية البناء عليها ، يقول : « ولعلّه يكون ، في إيراده للتحقيقات الشعرية المتعلقة بالأوزان التامة التي لم ترد إلا في النموذج النظري ، قاصدا إلى إمكان البناء عليها ، لأنها تحقق النموذج الإيقاعي الذي يمكن البناء عليه قياسا . خاصة وأنّه أورد جميع هذه الشواهد إغفالا من النسبة إلى من يكون قد قالها » (48) .

ولكن عمله هذا لم يكن مطردا في سائر الأوزان ، فهو لم يورد مثلا مجزوء المضارع ، ومجزوء المقتضب ،

ومجزوء المبحث تامة في شواهد . وهذا ما يجعلنا نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور محمد خليفة : « وإذا كان لهذه الازدواجية في التعامل مع الأوزان من جهة الكم من دلالة ، فإنها تؤكد الجانب الشكلي السطحي الذي بنى عليه الجوهري مقارنته لدراسة الأوزان وتأصيلها . وحتى هذا الجانب الشكلي لم يخل من الوهن » (49) .
والشيء اللافت للانتباه أن أبا نصر الجوهري لم يبسط الحديث عن الدوائر العروضية ، فقد أشار إليها في أثناء حديثه عن الكامل ، قائلا : « ويجمعها خمس دوائر مدخلات على ما نصّره بعد » (50) . وقال في آخر الكتاب : « وهذه صور الدوائر المدخلات » (51) . وهذا ما جعل محقق الكتاب محمد العلمي يقول : « ليس في الأصل صور الدوائر المدخلات ، ولعلّ ناسخه أهملها » (52) . ويقول الدكتور مصطفى حركات : « الجوهري لا يعتمد على الدوائر في تصنيف البحور ، وإنما على تركيبها من تفاعيل ، فهناك البحور البسيطة ... والبحور المركبة التي تقع بينها » (53) .
يقول أحمد محمد الشيخ : « إن الجوهري " حلّ بعق ، ودراية ما ذهب إليه الخليل لا من باب المخالفة ولكن من باب ضرورة خدمة العلم ، واستمرارية الدفق ، والخلق » (54) ، ويقول محمد عبد العزيز الدباغ : « ملاحظات الجوهري لا تتنافى مع خطة الخليل بن أحمد » (55) .

يقول الدكتور محمد خليفة : « ولقد خلف من بعد الخليل خلف خالفوا الخليل في بعض جزئيات علم العروض وفروعه ، أما أصوله فإنهم اقتفوا أثرها في معظم جزئيات العلم وفي قضايا المطروحة ... وتعدّ مخالفة الجوهري في (عروض الورقة) الخليل في كثير من أسس نظريته (عدّة الأجزاء ومفهوم الدائرة واشتقاق البحور بعضها من بعض ومفهوم الزحاف) من أهم مظاهر الخروج عند القدماء عن العروض الخليلي في مبادئه النظرية ... والواقع أن كتاب (عروض الورقة) ، على صغر حجمه ، طرح مبادئ جريئة من جهة مخالفة الخليل في المفاهيم الأساسية التي بنى عليها نظامه ، من جهة عدّة الأجزاء وتأصيلها ، وعدّة البحور ومفهوم الدائرة ، وآلية التأصيل والتفريع ، والنظرة إلى مفهوم التغيير ، والأخذ بالقياس في قبول المحدث » (56) .

أمّا الدكتور مصطفى حركات فيقول : « فإنّ ما أتى به صاحب الصحاح هزيل جدا » (57) .
يقول الدكتور محمد خليفة : « إن الجوهري في محاولته هذه كان سطحيًا في تناوله للظاهرة الإيقاعية ، فقوّض دعائم المنهج الخليلي الذي اعتمد عناصر النظام الذي وضعه مجموعة متكاملة لا تنفصل عراها ، وإنما يخدم كل مستوى فيه بقية منسجمة مع بقية الإجراءات » (58) .

هذا العمل الذي قام به الجوهري حدا بالدكتور مصطفى حركات أن ينعتة بالسوء ، يقول : « سيء جدا لأن النظرية في حاجة إلى معرفة ما هو اختياري من التغييرات وما هو إجباري ، ولكلّ صنف من صنف التحويل وظيفة أبرزها العروض الخليلي ، فالعلة تحدد نموذج القصيدة ، والزحاف داخلي مهمته تسهيل النظم » (59) .

الهوامش

- 1) أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1403هـ/1983م ، ج 4 / 468 .
- 2) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط1 ، 1406هـ/1986م : ج1/231 .
- 3) صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي ، كتاب الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1420هـ/200م (ج9/113 .

- 4 (ياقوت الحمويّ الرومي ، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1993 م ، ج 658/2 و 659 .
- 5 (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : كامل سليمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2010 ، ج 7 / 48 و 49 و 50 .
- 6 (أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة وسرّ العربية ، مطبعة مصطفى باي الحلبي وأولاده ، ط 3 ، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الأياري ، دار الكتب المصرية ، مصر ، ص : 235 .
- 7 (ينظر سليمان أحمد أبو ستة ، كتاب القوافي ، مقال منشور في مجلة الدراسات اللغوية ، المجلد الثامن ، العدد الثالث ، في سنة 1427هـ/2006م . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ص : 106 .
- 8 (ياقوت الحمويّ الرومي ، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1993 م ، ج 658/2 و 659 .
- 9 (ينظر أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1403 هـ / 1983 م ، ج 4 / 469 .
- 10 (معجم الأدباء ، ياقوت الحمويّ ، ج 6 / 155 .
- 11 (أبو الحسن عليّ بن رشيّق القيروانيّ ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، 1963م ، ج 1 / 135 .
- 12 (إميل بديع يعقوب ، المعجم المفصّل في علم العروض والقافية وفنون الشعر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1991م ط 1 ، ص : 53 .
- 13 (أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، عروض الورقة ، تحقيق : محمد العلمي ، الدار البيضاء ، المغرب ، دار الثقافة ، 1404هـ/1984م ، ط 1 . ص : 09 و 10 .
- 14 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، مقال منشور في مجلة الآداب واللغات ، مجلة دولية محكمة تصدر عن كلية الآداب واللغات بجامعة الأغواط ، الجزائر ، فيفري ، 2011 ، ع 07 ، ص 44 .
- 15 (عروض الورقة ، ص : 11 .
- 16 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 46 .
- 17 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 46 .
- 18 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 46 .
- 19 (عروض الورقة ، ص : 11 .
- 20 (عروض الورقة ، ص : 12 .
- 21 (عروض الورقة ، ص : 13 .
- 22 (مصطفى حركات ، نظريات الشعر ، الجزائر ، دار الآفاق (د.ت) ص : 96 .
- 23 (محمد بن عبد العزيز الدباغ ، تفسير علم العروض والقوافي ، مكتبة الفكر الرائد ، فاس ، المغرب ، 1989م ، ط 1 ، ص : 176 .
- 24 (عروض الورقة ، ص : 9 و 10 .

- 25 (عروض الورقة، ص : 57.
- 26 (عروض الورقة، ص : 57.
- 27 (عروض الورقة 60.
- 28 (عروض الورقة، ص: 61 .
- 29 (عروض الورقة، ص: 63 .
- 30 (عروض الورقة، ص: 35 .
- 31 (عروض الورقة، ص: 56 .
- 32 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، مقال منشور في مجلة الآداب واللغات ، مجلة دولية محكمة تصدر عن كلية الآداب واللغات بجامعة الأغواط ، الجزائر ، فيفري ، 2011 ، ع 07 ، ص 44.
- 33 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 46 .
- 34 (عروض الورقة، ص: 14 .
- 35 (عروض الورقة، ص: 15 .
- 36 (عروض الورقة، ص: 18 .
- 37 (عروض الورقة، ص: 11 .
- 38 (عروض الورقة، ص: 12 .
- 39 (عروض الورقة، ص: 50 .
- 40 (عروض الورقة، ص: 48 .
- 41 (عروض الورقة، ص: 50 .
- 42 (عروض الورقة، ص: 55 .
- 43 (محمد بوزواوي ، تاريخ العروض العربي من التأسيس إلى الاستدراك ، دار هومة ، الجزائر ، ط1 ، 2002
- 44 (مصطفى حركات ، نظريات الشعر ، دار الآفاق ، (د.ت) ص 96 .
- 45 (عروض الورقة، ص: 38 .
- 46 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 37 و 38 .
- 47 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 38 و 39 .
- 48 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 42 .
- 49 (محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 43 .
- 50 (عروض الورقة، ص: 11 .
- 51 (عروض الورقة، ص: 69 .
- 52 (عروض الورقة، ص: 69 . (الهامش) .
- 53 (مصطفى حركات ، نظريات الشعر ، ص: 95 .
- 54 (أحمد محمد الشيخ ، دراسات في علم العروض والقافية ، طرابلس ، ليبيا ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، 1988 ، ط 2 ، ص: 22.
- 55 (محمد عبد العزيز الدباغ ، تيسير علم العروض والقوافي ، ص: 117.

- 56) محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 34 و 35 .
- 57) مصطفى حركات ، نظريات الشعر ، دار الآفاق ، (دت) ص : 95 .
- 58) محمد خليفة ، بنية النظام العروضي عند الجوهري في (عروض الورقة) ، ص 46 .
- 59) مصطفى حركات ، نظريات الشعر ، دار الآفاق ، (دت) ص : 96 .